نرفض تقسيم الشعب الفلسطيني إلى سجانين ومسجونين وقاتلين ومقتولين

قالت إذاعة إسرائيل في إحدى نشراتها الإخبارية يوم الخميس الماضي إن رئيس أمريكا جورج بوش بعث إلى القيادة الفلسطينية رسالة خلال الأسبوع يطالبها فيها بضرورة القضاء على حركتي حماس والجهاد الإسلامي، قائلا إنه لا يكفي أن تكون الحركتان قد أوقفتا العمليات التفجيرية داخل الخط الأخضر، مضيفا إن المطلوب أن يشمل العمل ضدهما حبس الأشخاص وتصفية ما تدعوه الولايات المتحدة وإسرائيل (البنية التحتية) لهذه المنظمات. فإذا كان ذلك صحيحا، فإن معناه أن جورج بوش يقدم لنا في عقر دارنا الفلسطينية خيارين لا ثالث لهما وتلك صارت عادة من عاداته منذ خاطب جميع الدول بعبارة: " من ليس معنا فهو ضدنا! "ـ. والخيار الأول الظاهر الذي يتكلم به بوش هو أن يقتل الأخ الفلسطيني أخاه الفلسطيني، أما الخيار الثاني الباطن الذي يضمره ويلوح به بوش فهو أن يقتل الإسرائيليون الأخوين الفلسطينيين كليهما بواسطة الطائرات والدبابات والبوارج والصواريخ المهداة لإسرائيل من الولايات المتحدة.

إنه موقف أمريكي لا حد لعدوانيته تجاهنا وتجاه كل ما ننتمي إليه وكل ما نحرص عليه. وقد بلغ من عدوانيته أن أقرب المتمسحين بأذيال أمريكا في بلادنا العربية لم يعودوا قادرين على أن يبرروه بأي تعليل. فالسياسة الأمريكية تجاهنا وتجاه منطقتنا عموما اليوم هي سياسة (كلامنا أوامر. نفذها أو تمت). والموقف الأمريكي من ناحية ثانية أصبح متطابقا دون أي زاوية انفراج مع الموقف الإسرائيلي، حتى إن الناطقين الرسميين الأمريكيين باتوا يستخدمون في أوامرهم إلينا العبارات والصيغ الإسرائيلية ذاتها كلمة بكلمة وحرفا بحرف. ومع مجيء شارون إلى رئاسة حكومة إسرائيل ومجيء بوش إلى رئاسة أمريكا التقى الاثنان كأنما على وعد فوق أنقاض ما دعاه الإعلام الغربي منذ عهد السادات، قبل ربع قرن، باسم عملية السلام.

الجنرال المسكون بشهوته

نحن نشهد الزمن الذي بلغ الأمر بالولايات المتحدة فيه أنها لا تبذل حدا أدنى من الجهد للمحافظة على شكليات الحياد التي يراعيها في العادة المحكمون في المنازعات والصراعات.

ونحن نعرف شهوة شارون للدم الفلسطيني. فالرجل مسكون بتلك الشهوة. وسجل خدمته العسكرية في الجيش ناطق بأنه اختار دائما العمل في الوحدات التي يمكن له فيها أن يعاين الدم الفلسطيني والأشلاء الفلسطينية مباشرة من دون واسطة ولا مسافة. ولا يمكن فهم مذبحة صبرا وشاتيلا، على سبيل المثال، إلا إذا أخذنا بالحسبان ذلك التكوين الشاذ والمعقد لشخصية شارون. لأن أهل صبرا وشاتيلا الذين قرر ذبحهم بالواسطة لم يكونوا رجال حرب، ولم يكن هناك مجال لتصنيفهم في عداد من يهددون أمن إسرائيل. فالمحاربون الفلسطينيون كانوا قد رحلوا إلى تونس. والذين تخلفوا في صبرا وشاتيلا هم سكان المخيم اللاجئون الفلسطينيون ومعظمهم شيوخ ونساء وأطفال. وقد كان حرص شارون على شهود المذبحة بنفسه عن كثب وتلذذه بالاستماع إلى صرخات المطعونين المغدورين أمرا لا يأتيه البشر العاديون الأسوياء ولا رجال الحرب الشرفاء، بصرف النظر عن كونهم أصدقاء أو أعداء.

ونحن نعرف أن أمثال شارون يتطلعون دائما إلى مذابح جديدة كأنما تتغذى أرواحهم على دماء الآخرين، فهم بحاجة إلى مدد مستديم منها. بل ونحن نعرف أن الجمهرات الإسرائيلية التي انتخبت شارون أرادت بدورها أن تقر عينا بمصرع جميع الفلسطينيين إذا كان ذلك لازما لراحة بالها.

لكننا لا نستطيع أن نقبل ولا أن نهضم الموقف الأمريكي ولا أحكامه القراقوشية التي تملي علينا تقسيم الشعب العربي الفلسطيني إلى سجانين ومسجونين وإلى قاتلين ومقتولين. وذلك على الرغم من أننا استوعبنا جيدا عبرة قنابل السبعة أطنان في أفغانستان وما حملته سطور الموت والخراب التي سجلتها فوق جبال تورا بورا من رسالة إلى الشرق كله بمن فيه الصين!

نحن الفلسطينيين نرى من خلال المنطق الذي تقول الولايات المتحدة إنها تتخذه معيارا ومقياسا، أنه لا شيء يسوغ لها ولا لأوروبا وضع بعض الفلسطينيين في خانة الإرهاب الدولي وبعضهم في خانة المقبولين للعيش في عالم أمريكا. فقد كانت أعمال الانتفاضة ومقاتليها الفلسطينيين محصورة في نطاق الصراع العربي الإسرائيلي في فلسطين. وذلك في ظروف شهدت إمعان الاحتلال الإسرائيلي في القتل ومبالغته في استخدام الأسلحة ضد جمهور من المدنيين. فإذا كان هناك طرف يصدق عليه أنه في حالة دفاع عن النفس فهو الطرف الفلسطيني. وكذلك الأمر بالنسبة للمقاومة اللبنانية وأبطالها.

<u>تجنيد القوة الأمريكية</u>

فالمنطق الأمريكي قال إن بن لادن وراء عمليات الطائرات في الولايات المتحدة، ولذا أقدمت أمريكا على شن حرب للانتقام منه ومن تنظيم القاعدة الذي يتزعمه. كما توسع المنطق الأمريكي في تعريف الإرهاب فقال إن من يؤوي الإرهابيين فهو إرهابي، وهكذا صار نظام طالبان وفق هذا المنطق إرهابيا، وصارت الدولة كلها التي يحكمها هدفا للانتقام الأمريكي.

فبأي منطق تضم الولايات المتحدة منظمات فلسطينية تقاوم الاحتلال إلى قائمة الإرهاب؟ وبأي سلطان تريدنا أن نجند أنفسنا للعمل وفقا لإرادة شارون الذي مثل نفسه ببوش، ومثل إسرائيل بأمريكا، ومثل نصف الشعب الفلسطيني ببن لادن وطالبان ونصفه الآخر بقرضاي ورستن؟ إن المثال ساقط ولا وجه له، ولا جامع بين الفريقين إلا رغبة شارون في تجنيد القوة الأمريكية ضد الفلسطينيين وحلمه بأن يحدث في فلسطين ما حدث في أفغانستان.

أما المقاومة الفلسطينية فهي محتومة. ومثلها مثل يد الإنسان التي تمتد حتما في حركة معاكسة لحركة جسم غريب متحرك نحو عين الإنسان أو صدر الإنسان أو قلب الإنسان. ولا يمكن منع اليد المدافعة إلا إذا تغيرت الطبيعة الإنسانية بل وفطرة الكائنات الحية. وأما محدودو العقل من جنرالات إسرائيل ففي كل مرة يواجهون المقاومة الفلسطينية منذ مائة عام، يحسبون أن المشكلة راجعة إلى نقص في الاحتياطات أو في إجراءات القمع أو أدوات التعذيب.

والفلسطينيون بعد هذا شعب صغير. يعيش في مساحة ضيقة. وتتوزع الأسرة الواحدة فيه بين فصائل العمل السياسي وفقا للتعددية السياسية العربية والعالمية أحيانا. ولا يمكن أن يصح تسليط أفراد الأسرة الواحدة بهذا المعنى الحرفي بعضهم على بعض. غير أن ذلك جدير أن يحدث هزات وفرقعات إلى حين. وستبقى المقاومة بأشكالها المختلفة ما دام الظلم والتحامل يستهتران بالنزعة الفطرية للتعلق بالعدل لدى البشر ويتجاهلان الخصائص العضوية للفعل الدفاعي الانعكاسي لدى الكائنات الحية صغيرها وكبيرها.

نحن في حقيقة الأمر هدف لاضطهاد غير مبرر من جانب القوى العظمى. وقد أبدت قيادتنا الفلسطينية ما لا مزيد عليه من المرونة ومراعاة ميزان القوى. وليس بعد ذلك إلا الاستسلام بلا قيد ولا شرط. ونحن نكتشف كل يوم أكثر فأكثر أن اللعبة السياسية الدائرة هي مؤامرة أكثر منها عملية سلام أو تسوية. ولا مناص من التصدي لها صفا واحدا أيا كانت النتائج.

أشواق السلام

نحن لا نختلف عن بقية الشعوب التي تفكر بأمانيها، وتأمل في زمن تنتقل فيه من حالة الصراع وإراقة الدماء إلى حالة السلام الذي يعني الراحة وهدوء البال وإعادة بناء الحياة. وعلى هذه الأشواق ظل أعداء السلام في أمريكا وإسرائيل يتلاعبون ربع قرن كاملا ليكسبوا الوقت من أجل البلدوزرات وورشات إنشاء المستعمرات التي لم تتوقف في الأراضي العربية المنهوبة وأشجار الزيتون المخلوعة، متجاهلين أن السلام بين الشعوب ليس قهر الآخرين، ولا هو أمنية مطلقة تتحقق بسبب حرارة الشوق إليها، وإنما مضمون يرتبط بأماني الطرفين ويستجيب للمصالح التي لا يستطيع كل منهما الاستغناء عنها. وتجاهلوا أن تجريد العرب أصحاب فلسطين مما تبقى من أرضهم لا يترك معنى للسلام نفسه لأن مطلب العرب هو أن يستعيدوا أرضهم، لا أن يحصلوا من الإسرائيليين على الأمان. غير أن ذلك ما طلع به مناحم بيجن منذ ثلاثين عاما حين خاض على رأس الليكود معركة الانتخابات تحت شعار السلام في مقابل السلام، ردا على مبدأ الأرض مقابل السلام. والحقيقة أن الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة جعلت من الفترة الانتقالية نوعا آخر من الحرب.

يظن الجنرالات والحاخامات الذين أصبحوا ملوك الشارع الإسرائيلي أن ساعة الصفر قد دقت لتنفيذ ما يتطلع إليه كل فريق منهم. ويريد الجنرالات إرغام الفلسطينيين على التوقيع على تسوية (٤٢ % دولة فلسطينية في الضفة)، مقابل توقيع القيادة الفلسطينية على التنازل عن الباقي. ويريد الحاخامات السياسيون قتل كل فلسطيني، حتى الجنين في بطن أمه.

ويظن الرسميون العرب أن ٩٩ % من أوراق اللعبة بيد الولايات المتحدة، على الرغم من أنهم يعرفون أن الرؤساء الأمريكيين لا يتجاسرون على إغضاب اللوبي اليهودي في الولايات المتحدة.

على أننا لا نيأس. وإذا كان لا بد أن نموت فلنمت واقفين، ولنمت نحن الفلسطينيين الذين كتب علينا الرباط في بلادنا المقدسة متعانقين!